

## قراءات



ديناميكية الرأسمالية

تأليف فرنان بروديل

ترجمة شفيق محسن

دار الكتاب الجديد المتحدة (٢٠٠٨)

### قراءة عدنان فالح

مثلما اهتم هيراقليطس بالهدم الجدلي للصيرورة أكثر منه ببنائها، فقد جاء اهتمام نيتشه بسوء استخدام الفلاسفة للتاريخ أعظم من اهتمامه باستخداماته، بالرغم من أنه قد صرّح، بدون لبس، من أن خطيئة الفلاسفة تكمن في تصوّرهم للإنسان وكأنه معطى ثابت، أو كما قال في "إنسان مفترط في إنسانيته"، الكتاب الأول، بأن "خطيئة الفلاسفة هي غياب الحسّ

مجموعة من الباحثين

وحدة بعض هذه الطباع المنتشرة في كلِّ الأقاليم " (إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيته، الكتاب الأول).

لقد كان العامل الحاسم في تكوين العقل إذن هو الحاجة، وبذلك يكون نيتشه قد أعاد الحصان إلى مقدمة العرب، بعد أن اغتربت تلك العرب لأكثر من أربعة آلاف عام بتأثير لاهوتي خبيث، ابتداءً من سقراط بسحر العلة والمعلول، حتى أصبح ذلك السحر "يبدو لنا هو الذوق العادي" (الفجر)، والذي انتهى بتاريخ عالمي للعقل المطلق، وهي نهاية لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال.

في تلك المقالة المذكورة سابقاً، أوضح نيتشه، ومن البداية، أننا نستخدم التاريخ لخدمة الحياة، لإدامتها بالأحرى، وقد نتج عن ذلك الاستخدام النفعي للتاريخ ما يمكن أن نسميه بالأنماط الثلاثة للتاريخ: التذكاري، والأثري، والنقدي.

ولتوضيح الفائدة التي يجنيها الإنسان من تلك الاستخدامات للتاريخ، وبما أنه لا ينكر ثقل الماضي، فإن نيتشه يدرك أن ذلك الكائن التاريخي لا يهضم إلا ما يريده، وما يحافظ على حياته، وهو بالتالي لا يمكن أن يكون كائناً تاريخياً كاملاً. إن هذه المراوحة بين ما هو تاريخي، وما هو غير تاريخي، هي ما يطلق عليه نيتشه بأفق الكائن، ويرى أن ذلك قانون كلي، وهو "أن الكائن الحي لا يمكن أن يكون معافى وقويّاً إلا داخل ذلك الأفق" (The Use and Abuse the History).

إن ما حاول نيتشه أن يثبت بعد ذلك، وفي كلِّ كتبه، هو أن هذا الأفق لا يمكن ردمه أبداً، ربّما ترك

التاريخي، ذلك أن كثيرين منهم، ودون أن ينتهوا لذلك، يعتبرون صورة الإنسان الأخيرة، مثلما شكلتها تأثيرات بعض الديانات، بل بعض الأحداث السياسية، هي الشكل الثابت الذي منه ينبغي أن يكون المنطلق.

وقد كان ذلك واضحاً، أشدّ الوضوح، في أوّل كتبه السجالية، وأعني به كتاب *Thoughts out of Seasons*، وبالذات في المقالة الثانية المسماة بـ "The Use and Abuse the History"، وهي المقالة التي أعلن فيها أن عصره، وهو عصر هيجل بامتياز، يعاني من مس تاريخي خبيث.

ومع أن العالمين، عالمي هيجل ونيتشه، قد اتّسما بالسهولة؛ أي اختفى فيهما مفهوم الوجود الثابت المستقرّ، وهو، كما لا يخفى، أساس كلِّ الفلسفات السابقة، ويكفون بذلك أثبتا ولاءهما لهيراقليطس؛ إلا أن جدل الصيرورة الهيجلي لم يبق مخلصاً للنتائج المترتبة على مثل هذا التصوّر، وهي نتائج، بالتأكيد، تتعارض، إن لم نقل لا تستقيم مع فلسفة تنظر للمنطق على أنه خبرة التاريخ، وأن المجتمع المعاصر، الإنسان والدولة، هو كمال تلك الخبرة.

بالضد من هيجل، فإن نيتشه مضى إلى أبعد ما يمكن أن يترتب عن ذلك العالم غير المستقرّ؛ فنظر إلى التاريخ على أنه ميدان للصدفة والظلم، كما أن كماله ليس مستحيلاً حسب، بل غير مرغوب فيه؛ ذلك أنه يفضي إلى الحط من قدر الإنسان. كما أن العقل، وبما أنه ظاهرة حديثة نسبياً، فإنه ثانوي بالنسبة للحياة، فيكون الجنون، الذي يقول عنه أفلاطون إنه قد جلب أكبر النعم، هو "الوسيلة التي مكنت من الحفاظ على

وإن تحدّث عن أفق ما، فإنّ ذلك الأفق قد تحدّد سابقاً؛ وذلك قبل العالم والزمان، إنّ بجوار الآلهة وبصحبتها، وهكذا أصبح "التفكير عبارة عن تكرار" (الفجر).

ذلك هو المنهج الجينالوجي الذي احتمل الكائن، بعد أن أصبح هذا الأخير غير مرغوب فيه، لا لشيء إلا لأنّ وجوده، ووجوده فقط، يكشف عمق الهاوية التي لا يمكن ردّها، بل يمكن تحطيمها فقط. فالجينالوجيا لا تقفز خارج الزمان، وهي حين تتناول ظاهرة ما، تدرّك زوال تلك الظاهرة؛ فالمعنى ليس غير ثابت حسب، بل غير قابل للمعنى أيضاً.

إنّ ذلك يجعلنا نرقب ما وراء الحقيقة من أخطاء متراكمة، وأنّ ما ندّعيه على أنّه كذلك ليس إلا مزيداً من التحجّب البريء، وبذلك تصبح "الحقائق مجرد أوهام نسينا أنّها كذلك، هي الاستعارات التي أصبحت مبتذلة، والتي استنزفت قواها الحسّية، إنّها عملات معدنيّة وقد فقدت نقشها، وها هي الآن لم يعد لها قيمة باعتبارها عملات وإنّما معدن" (On Truth and Lies in a Non-moral Sense).

لم يكن هذا الدرس سهلاً أبداً، كما أنّه، وهذه حقيقة مؤلمة وكارثيّة، لم يكن مجّاناً بالمرّة؛ فقد دَفَع العالم ثمن إزالة ذلك الركام الذي خلّفته مجموعة من الالتزامات التاريخيّة، ولكن الثمن، بالتأكيد، كان ثمناً باهضاً جداً. هل كان على العالم أن يطيل أذنيه قليلاً لكي ينصت، ولكن هذه المرّة جيّداً، لرجل على حافة الهاوية، وشبه معنون، حين قال: "إنّني أول من اكتشف الحقيقة لأنّني استطعت أن أرى إلى الكذب ككذب، اشتممته... عبقرتي في أنفي... ومع ذلك فأنا النقيض لكل عقل نافٍ.

ذلك للديكتاتوريين، كما أنّه لا أحد يرغب بذلك؛ فيه تزهّر حياة الكائن، وتعدّد، ومنه تدخل كل الأوهام التي تحتاجها تلك الحياة، وهذا ما يؤسّس للصراع بين ما يسمّى الحقيقة والحياة.

لا شك في أنّ نيتشه قد انحاز في ذلك الصراع إلى جانب الحياة، وهو بذلك يكون قد خطى، بل قفز فوق كم هائل من الركام الذي حاصر الحياة.

مّا يهتّمنا في ذلك الركام، باعتبارنا أفقاً أيضاً، هو ذلك التغييب الذي يكاد يكون مطلقاً لمبحث الحقيقة. فهذه الأخيرة أصبحت ملكاً لجميع العقول؛ فهي شريفة لأنّها واضحة بذاتها، وكذلك غير خاضعة للتاريخ، فهي تسكن مع المثل، أو هي المثل؛ ذلك أنّ ما يخضع للتاريخ لا يمكن أن يكون حقيقياً، وبذلك أصبح التطابق بين الشيء وما نحمله عنه من فكرة تطابقاً مقدّساً: فالعقل الإلهي كان قد توزّع، وانقضى الأمر!

إنّ ما أرادّه ذلك الركام حتماً هو ألا نشفى، أبداً، من مرض التاريخ.

ولكن، أيّ تاريخ؟

التاريخ الميتافيزيقي للكائنات.

المعركة حقيقيّة إذن، وإذا كانت الأسلحة المستخدمة فيها هي المطرقة، وذلك فيما يخص نيتشه، فإنّ كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) قد أضاف لها سلاحاً فتاكاً آخر، لا يقل حدة عن الأوّل: المنجل، ومن ثمّ نقلها إلى ميدانها الحقيقي: المجتمع.

إنّ ما أنكره التاريخ الميتافيزيقي هو ذلك التفرد الغريزي للكائن، أو الأفق الذي يجعل الكائن يعي التاريخ على أنّه أفقه المليء بالصدف وبالجنون. فذلك التاريخ،

أقوم به سابقاً برفقة الأصدقاء، والتي ستتيح لك رؤية الحوانيت القديمة، أو رؤية بائع جِوَال كنت تعرفه فيما مضى، ستجعلك مطمئناً تماماً إلى أنك لست بقايا شبح. أما الثانية، فهي أن ما يهمني في هذا الكتاب، أو الأسواق القديمة، هو كيف تسير الأشياء، وأعتقد أن هذا ما سوف يتبقى بعد أن يتلاشى الجميع.

في المحاضرة الأولى "إعادة التفكير، في الحياة المادية والحياة الاقتصادية"، يشير بروديل إلى صعوبة الكلام على تاريخ اقتصادي نبيل واحد للعالم، إذ كيف نتجاوز، أو كيف يمكننا "تنظيم وترتيب كمية هائلة من الأحداث والشروح المتعلقة بأربعة قرون وبكافة الشعوب"؟

إن معالجة موضوع ضخم كهذا لا تتم إلا في الإحاطة بجوانبه الصغيرة جداً، وهذا ما حدث فعلاً، فقد التزم بروديل بمعايير محسوسة، فانطلق من اليومي، من الروتين حيث "آلاف الحركات تفتح، تتم من تلقاء نفسها... حيث أن أكثر من نصف البشرية هي غارقة، لا بل مأخوذة كلياً، باليومي".

ما هو موروث في اليومي، إذن، لا يُعد ولا يُحصى، فهو مُكدس بشكل فوضوي، تلقيه علينا، بشكل دائم، قرونٌ عديدة شديدة القدم، ولكنها دائمة الحيوية، والغاية تبقى، أبداً، واحدة: مساعدتنا على العيش، وأخذ القرارات عنّا ما دما موجودين.

بذلك يكون بروديل قد تنبّه مبكراً إلى ما كان يحدث في كتب التاريخ التقليدي، فالإنسان لا يأكل ولا يشرب في تلك الكتب، بينما أفضل تعريف ممكن للإنسان "هو ما يأكل". إن هذا التعريف يدفع

إنني رسول بشرى سعيدة ليس له من مثيل... ومع ذلك فأنا رجل الطامة والقدر المحتوم، ذلك أنه عندما تدخل الحقيقة في صراع مع أباطيل الآلاف من السنين يشهد العالم ارتجاجات وتوترات زلازل وتحول جبال وأودية كما لا يُخيل للمرء حتى في الأحلام. عندها يكون مفهوم السياسة قد انحل كلياً في حرب العقول، وكل البنى السلطوية قد راحت شظايا في الفضاء؛ إذ كلها متأسسة على الكذب. ستكون هناك حروب لم تشهد الأرض مثيلاً لها فيما مضى " (هذا هو الإنسان).

كان الفرنسي فرنان بروديل (١٩٠٠-١٩٨٥) من بين الذين أنصتوا جيداً، فأنكر أن يكون هناك تاريخ واحد لكل الفعاليات الإنسانية، وعد ذلك تمرّكاً فظاً حول الذات: فالتاريخ هو مجموع التواريخ الممكنة، وأنّ خطأنا التاريخي يكمن في اختيارنا لأحد هذه التواريخ دون سواه.

ولأهمية هذا المفكر، والذي ما زال مجهولاً في ثقافتنا، ارتأينا التعريف بأحد كتبه، وهو، بالأحرى، كتيب صغير، جمّع ثلاث محاضرات ألقاها بروديل عام ١٩٧٦، في جامعة Johns Hopkins، في الولايات المتحدة الأمريكية، بهدف تسليط الضوء على ما حدث بين القرنين، الخامس عشر والثامن عشر. قبل أن أشرع في قراءتي هذه، أود أن أثبت ملاحظتين: الأولى، ستكون شخصية، وهي أنني أجد في قراءة كتب الاقتصاد، ولو المبسطة، عاصماً يقيني من نفسي، ناهيك عن الأساطير التي أكون مضطراً إلى سماعها من المعارف والشارع. إن جولة قصيرة في شوارع مدينة قديمة، الناصرية مثلاً، وهذا ما كنت

فالرأسمالية "لا تسود إلا إذا تماثلت مع الدولة؛ إنها هي الدولة".

وإذا كان ذلك شأن الدولة، فإن الثقافة لا تشدُّ، بالتأكيد، عنه؛ الدين، مثلاً، "الذي يستمدُّ قوّته من التقاليد، يقول لا للسوق، لا للمال، لا للمضاربات، لا للربا. لكن توجد تسويات مع الكنيسة؛ وهذه الأخيرة لا تتوقّف عن قول: لا؛ لكنّها تنتهي بقول نعم لمتطلّبات العصر الملحة".

هل سيكون كلُّ ذلك كافياً للإجابة عن سؤال جوهريّ: لماذا كانت الرأسمالية، ولم يكن شيئاً آخر؟ وفي توسّل الإجابة، فإنّ المؤلّف يجهد في إبراز الفوارق بين تجارب اقتصاد-العالم؛ في الصين، فإنّ الحركة الاجتماعيّة عمودياً، لأنّ المجتمع "أقلُّ استقراراً. إنّ الأبواب مفتوحة، في تلك المجتمعات، والمراتب الاجتماعيّة سهلة البلوغ". كذلك في بلاد الإسلام، فإنّ "تملك الأرض كان مؤقتاً لأنّ الأرض، هنا أيضاً، تعود في القانون إلى الأمير (الحاكم)".

سيكون على المحاضرة الثالثة "زمن العالم" إعادة تركيب ما تفرّق في المحاضرتين السابقتين، فيبدأ بروديل بالتفرقة بين الاقتصاد العالميّ، الذي هو اقتصاد العالم بمجمله، وبين الاقتصاد-العالم، وهو اقتصاد جزء واحد من العالم.

في إمكاننا تعريف اقتصاد-عالم بثلاث حقائق: إنّه يحتلّ حيزاً جغرافياً؛ كذلك فإنّه يتقبّل دائماً قطباً، مركزاً؛ وأخيراً، فإنّه يتوزّع على دوائر متتالية.

هناك، إذن، عدّة اقتصاديات مترامنة، والتي "لا تقيم فيما بينها إلا مبادلات محدودة جداً". وبما أنّ هذه الاقتصاديات تتغيّر ببطء شديد، فإنّه سيكون هناك "متسع من الوقت لدراستها، لرؤيتها حيّة وتقدير حجمها؛ ذلك

المؤلّف دفعاً إلى اختزال منظومة كبيرة كالرأسمالية، وهو على حقّ، إلى مجرد "مجموعة من الحيل والخطط، من التدابير، العادات والأعمال الباهرة".

هل أراد المؤلّف القول إنّ التنازع على ما يؤكّل هو الذي حدّد تاريخ التقنيات، وبالتالي تفوّق أوروبا؟ ولأنّ الإجابة لم تحدّد تماماً، فإنّنا نستطيع تتبّعها من بداية اقتصاد المبادلة، إذ أنّ هذا الاقتصاد ممدودٌ "بين حقلين ضخمين على حدّ سواء: الإنتاج من جهة، والاستهلاك من الجهة المقابلة". ويبقى أنّ المدن والنقود صنعتا العصريّة، كما أنّ "الملاحة والرأسمالية صنعتا تفوّق أوروبا".

في المحاضرة الثانية "ألعاب التبادل"، يواصل بروديل تتبّع نمو الرأسمالية منذ العصر الوسيط، وكيف بدأ عالم السلع يأخذ شكلاً هرمياً منذ أن أدخل معه أصحاب المهن الوضيعة: حمّال، مُفَرِّغ بضائع، بائع جوال، سائس، ملاح، إلى مهن كأمين صندوق، حانوتيّ، سمسار... وكيف أنّ هذا التوزيع الوظيفيّ، وتوزيع العمل قد نَمى بوتيرة سريعة. يُرجع المؤلّف سبب ذلك الازدهار الرأسماليّ إلى "قدرتها على التكيّف مع الواقع القائم أو مع أوضاع سابقة عادت وطفّت على السطح"، لكنّه يميّز بالفعاليّة الاقتصاديّة نوعين من تبادل السلع: واحد عمليّ تنافسيّ لأنّه شفاف؛ والآخر متفوّق، متطوّر، ومهيمن. ولأنّ الآليات هي ليست نفسها في النوعين، فإنّ الرأسمالية ليست موجودة في الأوّل، بل في الآخر.

إنّ ذلك يشير إلى أنّ الرأسمالية لا يمكن أن تستمرّ من دون تواطؤ المجتمع، بالرغم من كونها امتيازاً بيد القلّة؛ فالدولة الحديثة لم "تخترع الرأسمالية إنّما ورثتها، تحاييها أحياناً، وأحياناً أخرى تعافيتها"، وهي تتركها أحياناً تتوسّع،



### قوة الدين في المجال العام

يورغن هابرماس - تشارلس تيلر - جوديث بتلر -  
كورنيل ويست  
دار التنوير، ٢٠١٣

مقدمة فلاح رحيم  
مترجم الكتاب

يحتوي كتاب "قوة الدين في المجال العام" على المحاضرات والنقاشات التي طرحت في حدث أكاديمي بارز وقع عام ٢٠٠٩ في مدينة نيويورك برعاية ثلاث مؤسسات علمية رصينة تحت عنوان "قوة الدين في المجال العام". وهنالك أكثر من سبب يدعونا إلى ترجمته إلى العربية في هذا الوقت تحديداً، منها أن الموضوع وما أحاط به من حوارات تقارب بعضاً من أخطر الأسئلة التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية في أعقاب إعصار الربيع العربي، ومنها أهمية الأسماء المشاركة في الحدث وما عُرف عنها من رصانة وجرأة

أنها صورة عن تاريخ قديم للعالم.

ولتقديم فكرة ملموسة عن نشوء واضمحلال اقتصاديات-عالم، فيمكننا تتبعها منذ نشوء أول نوع منها في البندقية عام ١٣٨٠، إلى أن تم إزاحتها عام ١٥٠٠ لصالح مدينة أنفر، وهكذا تعدد المراكز إلى أن يستقر اقتصاد أوروبا في لندن بين ١٧٨٠ و١٨١٥، ثم يغادرها عام ١٩٢٩ ليمكث بنيويورك.

أما آسيا فقد عرفت أيضاً اقتصاديات-عولم منظّمة بشكل كامل، لكن يمكن القول إن علاقاتها مع اقتصاديات أوروبا كانت سطحية، فهي "بدون شك، تتعلق ببعض السلع الفاخرة-بهارات، توابل، وحرير". ولكن، كيف اندثرت تلك المراكز التي احتلت، يوماً ما، موقعاً لافتاً؟ يجيب بروديل: "الأزمات الاقتصادية الحادة. إنه الجو الاقتصادي السيئ الذي يسقط المركز القديم، المهتد أساساً... [حيث] يجتاز الأقوياء وينهار فيها الضعفاء".

إن هذه التحولات لا تكون إلا لأنها تحمل تناقضاتها معها، فالرأسمالية "وليدة عدم المساواة في العالم؛ إنها بحاجة، لكي تنمو وتنتشر، إلى تواطؤ الاقتصاد الدولي. إنها سليلة المنظمة الاستبدادية ذات المجال المتجاوز الحد بكل تأكيد".

بقي أن نذكر بأن المؤلف قد شخّص الأزمة العالمية الحادة، وهي بالطبع أزمة الرأسمالية، لكنه يبدو متفائلاً، فإذا ما "سقطت نيويورك في الاختبار، وهذا ما لا أتوقعه إطلاقاً، على العالم عندها أن يجد أو يخلق مركزاً جديداً".